قصة قصيرة

فاليوم للحلقة المفقودة

زهرة زيراوي

أثناء رقادنا المذعور، تتجمّع على أجسادنا- في سور السرير - شموس صغيرة ثرثارة تدفئنا، وتهيئنا لتجربة النهار المقبل الجليدية.

من اغاني «بالادران»

- ١ -

بريدها فارغٌ على الدوام.

وهذا الصباح ليس ككل صباح... في الليل قرّبت منها المصباح، نضّدت أزهار الكاردينيا برفق، ثم استلقت على الأريكة البنفسجيّة وبدأت تعيد قراءة الرسالة.

«عزيزتي!»

استغربت وأنا أنظر من نافذة القطار، على الجهة الموازية كان قطار يقطع سكّته... ترتجف بعض أزهار «الكلكاز» بسيقانها الرفيعة والمونعة وهو يمرّ فوقها.

لماذا اختارت هذا التصحّر، وهذا الطريق الفولاذي الرهيب للتحدّي؟

أيّتها السنديانة هل اخترت أنت أيضاً تصحّرك؟

تدور ملامحك القمحيّة حولي، فأنكسر على ثغرك الملائكيّ، كموجة محمومة على شاطئ عذريّ، دعيني أقف وأجذبك نحوي لأقبّلك بقوّة، ودعيهم يقولون:

«معاً نرقص الراب تحت مطر حامض

هذا ماء جديد»

صديقك

- ٢ -

في الخميس الأول من شهر فبراير كانت الأمطار تضرب زجاج نافذتها بقوة، ذكّرتها برسالة الخميس أول الشهر، هبطت الدرج، فتحت الرسالة وهي تصعد الدرج، تقرأ:

عزيزتي!....

في الجانب الأيسر من البحيرة أجلس، أدحرج أنفاسي على إحدى موائد المقهى، أشرب قهوتي. تباغتني الصور:

أمتطي الطائرة إلى ناحية أخرى من الأرض، المضيفة ظلّت تنتقل بيننا وتبتسم، كانت تحمل باقة ورد.

عرفنا فيما بعد، أن حريقاً كادت تتّسع مساحة اشتعاله بالطائرة، وعندما كان الآخرون يوقفون زحفهم كانت تنصب قامتها الرشيقة بيننا، تنظر إلينا وتبتسم. أحسست بقبلتها دافئة على جبهتي، علّ الآخرين أحسّوا بما أحسست به، قد تقولين: إن المقابر الجماعية، لا تخيف، لكن... هل؟ ...لا أعرف.

أناولك قرنفلة، عانقيها، علّها تنيمك حتى خميس قادم.

صديقك

- ٣ -

كدورة دموية تنسحق، تعاقبت الأيام، ليأتي بعدها ربيع قادم، كانت تشرب الشاي في تلذّذ، وهي تتابع قراءة رسالة هذا الشهر:

... أتعبني الركض خلفك، وخلف كثير من الأشياء، أيُّ معنى لكل هذه الأشياء التي تعبرني؟

هذا الصباح وجسدي ممدّد تحت الموجات الكهربائية، نصف نهار قضيته ممدّداً تحت هذا التيّار تساءلت:

هذه الموجات الضوئية التي تعبرني، هل تعبر أشيائي السرية؟... هل تتركها بسلام؟ هذا السرّي قادني إلى مبهمات أخرى:

الحب، ما الحب؟

الروح، ما الروح؟

الموت، ما الموت؟

عن الأوّل قال أحد أصدقائي: «هو شيء كاللعب» أما الثالث... أليس عندما نخلع المعطف القديم، ويدسّونه في التراب، يقولون «ماتوا ا...» آنذاك تكون الروح متجهة نحو عالم آخر.

لن نتكرر لحماً ودماً، لكن حتماً نلبس معاطف أخرى، كيف هي؟ أنا لا أعرف.

مساء البارحة نحتّ تمثالين، جعلتهما متعانقين عند النصف العلوي، لقد قاومت صلابة البرونز لأجعلهما أكثر انسياباً. بدا الجسدان متداخلين.

قلت: «من يستطيع أن ينزع الآن أحدهما من صدر صاحبه؟!... سيتهشّمان حتماً».

هذه الليلة صورة لامرأة ورجل، يعبران مخيّلتي لا يجلسان مواجهة، بل هما مربوطان من الظهر، يترحّل بينهما الليل والنهار.

لا تبحثي عن الحلقة المفقودة يا لينا!

أنت تشتغلين على أبديّة زمن «لافيل» الروح هي الحرية، ومدينتهم تشتغل على أبديّة غير أبديّتنا تماماً.

يا لينا!

كانت المدينة بحراً

وكنّا بحراً غير ذاك البحر.

ذكّرني هذا الممضّ بذاك العربيّ الذي شبّه قبيلته بالناقة.

لقد اختلف بحرها عن بحره.

حدّث نفسه صامتاً:

«هوى ناقتي خلفها

وهواي

قدّامي، وإنّا لمختلفتان.

فيا العاشقة

لذاك البحر!

نامي

نامي، ودونما سؤال.

تضع الرسالة جانباً وتبتسم. يأتي المساء، التخاريم التي في الشبّاك تتدفّق منها أشعّة الشمس الأرجُوانيّة إلى داخل الغرفة، تقف تنظر من هذه التخاريم إلى شساعة ذاك الفضاء.

الخطاطيف تودّع النهار برقصة باليه، رائعة تبدو في هذه الطقوس الاحتفالية، تختم الطيور نهاراً يرحل، لتستقبل صباحاً آخر.

من تلك التخاريم، نظرتْ إلى أشجار الكاليبتوس العالية والعتيقة، إلى طين الأرض... إلى العمارات... إلى الذاهبين... إلى الآيبين. قالت:

هنا هنا يولد طفل غريب، في الوجه عين واحدة، يتشكّل في معابر المدينة، في دروبها وحاراتها، في صور كثيرة يتشكّل.

كان يحوّل كل شيء إلى طمي، ودم عنكبوت، المدينة كانت نائمة.

تمرّات هذا المشهد طويلاً، تابعت: ستهرب من البوابة الخلفية إلى داخلك، أليست الروح هي الحرية؟ تذكّرت صديقتها نزيهة، كلّما امتطت الطائرة، تراها تحمل باقة ورد، تسألها: لمن هذا الورد يا نزيهة؟ تقول: لنزيهة.. أفعل ذلك حتى لا أشعر بعزلتي وأنا أقطع ساحة المطار، أعرف أن لا أحد في الانتظار يا لينا، هنا حلقة مفقودة بيني وبين نفسي، بيني وبين العالم.

ترتخي على الأريكة، تبتسم وتقول: تحتال نزيهة على نزيهة، تحتال لينا على لينا.

انتهت اللعبة إذن!... فتّشي عن طريقة أخرى للاحتفال يا امرأة!

«الفاليوم» للحلقة المفقودة بيني وبين نفسي... بيني وبين العالم. «البروفنيد» للروماتيزم. سأحكي لنفسي كما أحكي كل ليلة:

هذه نهاية تشبهني كثيـــــــــــــراً

تسلمني للخدر

تصيبني بالا..... نـ....هـ

يـ.....

ا.....

ر!

المغرب